أزمة العـدالة

إنه عالم فرنسي يعود إلى عالم النور والحرية ، بعد سنوات أربع قضاها فى ظلام المعتقل ، احتمل فيها أغلال الجستابو الحديدية فى مرارة وصبر وعناد . تقام له حفلة تكريم فى السربون ، معهد العلم . ومعبد الحرية الفكرية ، والهيكل الذى تقدس فيه حقوق الأفراد، فلا يحدثنا العالم الشيخ عن تجبر النازى، ولا يفضى إلينا بفظائع معسكرات الاعتقال ، إنه ينسى آلامه وأوجاعه ولا يعود بذكر غير المأساة الانسانية ، والكارثة العالمية : الحرب . دليل إخفاق البشرية وعلامة حمقها. ثم يحاول تلمس علتها ، ويضع إصبعه عليها : افتقار العالم إلى العدالة . يرجع الحروب إلى تطور العلم تطوراً أدهشتنا سرعته، وبهرتنا فتوحه، وقصور العدالة فى نفس الوقت عن اللحاق بالعلم فى تقدمه السريع . العلم يقفز قفزات طويلة سريعة ، ويخطو خطوات حثيثة كلها ثقة بل تمرد وتبجح ، بينما الأخلاق والعدالة تتعثر فى سيرها ، وتتلكأ وترتد إلى الهمجية والأنانية فى كثير من الأحيان .

وقد صـــدق العالم فى تشخيص الداء الذى يلح على الانسانية، والعلة التى تفسد عليها الحياة وتحرمها من الأمن والطمأنينة . نحن فى أزمة ، أزمة عدالة قوامها الظلم واستغلال القوى للضعيف ، واستسلام الضعيف لحكم القوى وتجبره . تلك هى الأخلاق السائدة فى المدن والدول، وهى نفسها الأخلاق السائدة بين الدول فى علاقاتها المتبادلة : تحكم وطغيان من جانب ، واستكانة وخضوع من جانب آخر . أزمة أصابت الظالم والمظلوم ، كلاهما مجرم فى حق الانسانية فلا تبرئن المظلوم، وصدق من قائل «لولا من يقبل الجور لم يكن من يجور .»

تحدث هذا الفساد والعطب والتعثر فى مجال العدالة بينما العلم يفتح كل يوم آفاقاً جديدة ، ويزودنا فى كل لحظة بكل عجيب من الاختراع، فى حين أن فكرة العدالة لم تتغير تغيراً كبيراً عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، عصور الظلم والظلام والفرقة الشاسعة بين الطبقات . فلما سرى العلم فى عقول لا تثيرها العدالة الحقيقية ، وفى أذهان لا تهتدى بالقلوب المفعمة بأنبل العواطف، وقعت الكارثة وأصبحت المدنية مهددة بدمار ساحق . وما كانت للمدنية أن تقف على قدميها ، إن كانت مجرد أفكار باردة ومعارف جافة خالية من محبة الخير للإنسانية . وما كانت للمدنية أن تواصل سيرها إن كانت حكراً لفئة دون أخرى، أو وقفاً على نفر قليل لا يرعون للإنسانية حرمة . ولا بد للعلم أن ينحرف عن غايته الأصيلة ، وهى إسعاد المجتمع البشرى ، إن كانت كشوفه وقفاً على عقول لا تهتدى بفكرة العدالة الحقيقية .

من أجل هـذا كان العالم فى مسيس الحاجة إلى علماء مستعدين لوضع قواهم ومواهبهم وجهودهم فى خدمة العدالة ، ليس هذا فحسب بل أن يكون نتاج قرائحهم ملكا للشعوب جميعاً، وأن يكون لمكتشفاتهم سدنة لا غرض لهم ولا هوى إلا إسعاد الانسانية البائسة .

وكيف يكون ذلك ؟.

يكون ذلك بتطبيق أحدث الأساليب والمناهج العلمية فى علاج مشكلات المجتمع والسياسة والاقتصاد ، فنرجع العلل إلى أسبابها الحقيقية . لا إلى أسباب خرافية خفية ما أنزل الله بها من سلطان ، بعد فحص وملاحظة وتجريب، ونتناول مشكلات الحياة الخاصة تناول العالم لمشكلات معمله أو مختبره ، إذ يطبق المنهج العلمى الذى لا يتقيد بوهم أو خرافة أو عاطفة ، ويتحلى بالروح العلمية السمحة التى لا تعرف تحيزاً ولا تقر غير منطق الواقع .

أيتها الانسانية الحمقاء : حذار من ضياء العلم فقد يستحيل لهيباً محرقاً إن لم يكن ملكا مشاعاً للشعوب التى لا تبغى غير العيش فى أمان وسلام . حذار من اللصوص الذين يسرقون نتاج قرائحكم ليستضيئوا هم به ويحرقوكم بلهيبه وليقر فى أذهانكم قول الفيلسوف فرنسيس بيكون :

« إن الناس ثلاثة : رجل يطمع فى أن يبسط سلطانه على أمته وهو أوضع الثلاثة ، ورجل يطمع فى أن ينشر نفوذ أمته على أمة أخرى وهو أرقى من الأول ، ورجل يطمع فى أن يجعل الجنس البشرى سيد الكون وهو أشرف الثلاثة . »

لو نجحنا فى جعل منتجات العلم فى حراسة من يطمع فى أن يجعل الجنس البشرى، سيد الكون ، لا فى حراسة من يطمع فى أن يسود الجنس البشرى ، حينئذ تنفرج أزمة العدالة ويتعانق العلم والأخلاق فى سبيل أمان دائم وسلم مقيم.

عبد المنعم عبد العزيز الملجى
مدرس الفلسفة بحلوان